العلم

هل هو نعمة أم نقمة ؟

قد يُدهش بعضكم أن أتساءل عما إذا كان العلم نعمةً أم نقمةً . أو يمكن أن يكون العلم إلاَّ نعمةً لا نعلو عليها نعمة ؟ أو لم تفترن بذهننا كلمة العلم بمظاهر التقدم والحضارة والرفاهية ؟ أليس العلمُ النور الذي يهتدي به الانسانُ العاقل ، والقوة التي تمكنه من السيطرة على الطبيعة الناهية حتى قهرها واستغلها لما فيه منفعتُه وراحتُه ؟ أليس العلم هو ما يميز شعباً على شعب وفرداً على فرد ؟ أوليست المقاييس العلميةُ هي مقاييسُ الشعوب الراقية ؟ ألم يصبح العلم ضرورةً لكل من يريد مسايرة العصر ومجاراته ؟ إن نعم العلم ملموسة في حياتنا اليومية في جميع نواحيها . فالمواصلات وما انتهت إليه من سرعة في البر والبحر والجو جعلت المسافات لا حساب لها إطلاقاً وأصبح العالمُ في أطرافه المتباعدة عالماً واحداً وضاقت إقارةُ الأرضية بالانسان فأخذ يحاول الوصول الى القمر والى المريخ ثم أن سرعة المواصلات كثيراً ما أفادت في تعرُّف الشعوب المختلفة بعضها على بعض وكثيراً ما سهَّلت انجاز الأعمال بسرعة لم تكن الأجيالُ السابقةُ لتحلم بها .

ومن آثار العلم أنه رفع مستوى المعيشة وخفَّض اعباء الحياة الى حدها الأدنى إذ تُستعمل اليوم الآلة حيث كان يطلب من العامل أن يقوم بعمل شاق ، ومرهق طويل . أما الآلة فتمتاز بالسرعة والاتقان .

فالراديو ، أليس يجعل في متناول الجميع تلقُّي الأخبار العالمية والمحلية ؟ أولم يساعد في توسيع دائرة معلومات الفرد في مواضيع شتى الى جانب ما يقدم من برامج الترفيه والتسلية . والهاتف أليس له فضلٌ كبيرٌ في تسهيل الاتصالات بين الناس . إننا نعرف قيمته وفوائده

(١) نص محاضرة ألقيت في دار نادي الاتحاد الارثوذكسي في القاهرة

عندما نحرم منه ولو يوماً لسبب من الأسباب ، فالسرعة التي اعتدنا عليها في الحياة أم اننا أضفنا على الوقت قيمة لم تكن له من قبل فأصبحت الثانية لها قيمتها وحسابها .

لقد كان فعل العلم في حياة الانسان فعل الأعجوبة إذ غيّرها رأساً على عقب وأتى بمعجزات ليس أقلها أثراً ما يقوم به الطب الحديث من معالجة وقاية وما توصل إليه علم النفس من النفاذ الى باطن العقل ومعالجة عوارضه الظاهر منها والخفي ومساعدة المرء على حل مشاكله النفسية وعلى التوفيق بينه وبين بيئته إذا كان هناك صراع بينهما .

هذه قلة من كثرة مما يمكن أن يقال في العلم ، وسردٌ سريع لآثاره في حياتنا اليومية تعرّضت له ، لا أدلل لمن أدهشه تساؤلي عن فوائد العلم ، أنه على حق في دهشته وأن العلم في حد ذاته وفي تأثيره العملية نعمة عظيمة وبرهان ملموس يشيد بالعقل الانساني وما توصل إليه من وقي يستحق الاجلال والاكبار . ومع ذلك ، ومع أن الاعتراف بآثار العلم وفوائده ما هو إلا إقرار الحق والواقع ، إلا أن التساؤل عما اذا كان العلم نعمة أم نقمة له مبرّرات قوية كثيرة .

فلنلق نظرة المدقق على عالم اليوم هل أدّى التقدم العلمي الى إسعاد الشعوب وطمأنتها ؟ وإلى هناءة الأفراد وراحتهم ؟ هل كانت نتيجة العلم ان حكّم الانسان عقله في تصرفاته بدلاً من الانسياق وراء غرائزه وعاطفته فسلك السبيل السليم ، القويم ؟ هل بات المجتمع وحدة يسودها الوئام والتفاهم ، والاتساق بكل أفرادها بعضهم بعضاً ويعمل الفرد لمصلحة الجماعة ؟ هل يستعمل الاقوياء قوتهم وتفوقهم لاحقاق الحق ومناصرة المستضعف ، والدفاع عن المبادىء السامية التي بها وحدها يعلو الانسان الى المكانة اللائقة به ؟ هل طبعت العلاقات بين الأفراد والشعوب بروح الثقة المتبادلة والتسامح والاخوة ؟ أيتطلع العالم الى مستقبل بهيج ، آمن بفضل جهود القابضين على أزمة الحكم والمسيطرين على مصير الشعوب ؟ هل العالم تشغله المشاريع العمرانية ، الانشائية التي ترجع على الانسانية بالخير المزايد ؟

أين منا اليوم هذا كله ؟ إن العالم قلق ، متعب ، يكتنفه الاضطراب والفوضى والذعر من المستقبل الذي يبدو مظلماً ، حالكاً .

لقد كثرت المشاكل وتعسرت المنازعات حتى لم تعد بقعة من بقاع الأرض تعرف الهدوء والطمأنينة ؛ وتألبت الشعوب حائرة ، فزعة تتوقع كارثة قد تدهم العالم اذا استمرت الحالة الدولية على ما هي الآن .

لقد عصرنا بعصر العلم والحضارة وفخرنا بأننا سبقنا الأجيال كلها وحققنا تقدماً وعملاً بالانسان الى ذرا المجد والعظمة . وفي العصر نفسه أضرمت نار حربين عالميتين ما زالت الشعوب تئن تحت وطأتهما وتركتنا على خراب وفرض ، وسيبقى هي خسائرهما حرباً متمانيتان وقف الانسان فيهما ضد أخيه الانسان فقتل وهدم بكل ما أكسبه علمه من إحكام واتقان ، هدم بنظام وقتل بتفنن وتبصر واستعمل أحدث الأسلحة وأكثرها فتكاً وجندت جميع القوى والعبقريات لاختراع وسائل الهدم والتخريب ، وخرجت الدول المنتصرة منها والمنكسرة من هاتين الحربين أضعف ما يمكن أن تصل اليه ، وعانت الشعوب ما عانت من الصعاب والحرمان .

ولكن هل العلم النظري بما أودى بها اليه طمعها وحماقتها ؟ هل عقدت العزم على أن تقيم على الناس ما عشت عراة ثابتاً ، دائماً ؟ لقد ألفت بعد الحرب العالمية الأولى عصبة أمم لتبني صرح سلام مستديم ولكنها ماتت بالفشل لأن بعض الدول الأعضاء لم يعمل بالمبادىء التي أقيمت عصبة الأمم على أساسها بل اتخذتها الدول الكبيرة أداة لتنفيذ مآربها ، فنقضت عهوداً كانت قد قطعتها للشعوب التي ساعدتها أملاً بنيل الحرية والاستقلال ووضعتها تحت سيطرتها وتناحرت في ما بينها مناطق نفوذ كي يتقاسم الغنائم ما ينهبون ويسلبون . وها هو التاريخ يعيد نفسه وما هي هيئة الأمم تسير على خطى عصبة الأمم والى نهايتها .

* * *

علق العالم على هيئة الأمم أملاً كبيراً لحل المشاكل الدولية ولكن هيئة الأمم زادت هذه المشاكل تعقيداً وقد أصبحت مسرحاً لصراع الدائر بين كتلتين تتسابقان على التوسع والسيادة . إن خطراً عظيماً يحدق بالعالم أجمع إذ أنه أصبح أمراً محتملاً أن تقع حرب عالمية ثالثة ، حرب ذرية طاحنة لا رحم ولا تبقي .

هذا ما انتهى إليه العصرُ العلمي ، عصر النور والمدنية ويلها من نهاية !

ما قيمةُ العلم اذا كانت هذه نتائجهُ ؟ وما فائدة النور إذا كنا نعمد الى أن نعيش في ظلام ، وأين هي الحضارة إذا كنا نعيشُ على سُنة الأدغال وفلسفتها ؟ أين الرقي وأين التقدم ؟ أيقاس التقدم الحقيقي بما اخترع من آلات وما وُصل إليه من سرعة تعادل سرعة انتقال الصوت ؟ أبلغنا درجة الرقي لأننا حطمنا الذرّة ! ولكن ما فائدة هذا كله اذا كان يستعمل للهدم لا للبناء ويسوق الانسانية الى الشقاء لا الى الهناء . كان بالامكان أن تستغل الذرّة أحسن استغلال لخدمة البشرية ومدنيتها ، ولكن طمع الدول الكبرى وقصر نظرها أرادا أن يكون هذا الاكتشاف نقمة وخطراً بدلاً من أن يكون نعمةً وبركة .

* * *

أين الحضارة التي نفخر بها ؟ هل توصلنا الى جعل الحق فوق القوّة ؟ هل من الحضارة أن تستعمر الدول الكبيرة الدول الصغيرة وتستغلها بحجة الانسانية والتفوق العلمي ؟ وما هو هذا العلم الذي باسمه تُهضمُ حقوق الشعوب وتغتصب ؟ وكيف يمكن أن يكون العلم نعمةً إذا كان يؤدي الى ازدياد التنافس والتنافر بين الدول والأفراد ؟ ما فائدة العلم اذا كان يزيد الناس أنانية ووحشية ؟ ما فائدته اذا كان سبباً لهدم القيم الاخلاقية والأواصر الاجتماعية ؟ ما قيمته اذا كان يستخدم للشر لا للخير ؟

نعم ، إنه ليحق لنا أن نتساءل هل اذا كان العلم نعمة أم نقمة وتساؤلنا أسوّغه حالة العالم التعسة في عصر العلم .

إن العلم قوة هائلة يمكن استخدامها للخير والشر .

والعلم نعمة اذا هدف تطبيقه الى العمران والسلام وهو نقمة اذا استعمله الانسان أداة لهدم نفسه بنفسه .

العلم نعمة يريدها الانسان نقمة ، وقد آن للانسان أن يشفق على نفسه وأن يفطن الى أنه انسان عاقل ، وانه ليس من العقل بشيء أن يجعل النعمة نقمة .

جاكلين تحري